بين ابن خلدون ومنتسكيو :

القوانين والمجتمع

للأستاذ محمد محمود زيتون

عاش ابن خلدون المغربي المسلم في القرن الرابع عشر ، وتأمل التاريخ فوضع موسوعته الخالدة «المقدمة» ، وهي أول بحث علمي منظم في الاجتماع ، وبعده بأربعة قرون جاء منتسكيو الفرنسي المسيحي بكتابه «روح القوانين» Esprit des lois استغرق في وضعه عشرين عاما قضاها في دراسات واسعة في المجتمعات وظروفها السياسية والاجتماعية والدينية التي تحدد قوانينها .

عنى ابن خلدون بالاجتماع الانساني وما يلحقه من العوارض والأحوال كما اهتم منتسكيو بالمناخ والدين والقوانين والنظم الحكومية والتقاليد والعادات وأحوال المعيشة ، وكلها أمور تتحكم في المجتمع وتؤلف «الروح العامة» Esprit général وهي ما يحدد خصائص الأمة ، ويميز شخصيتها عن سائر الأمم . ومقتضى هذه الروح العامة يجب أن تسن القوانين «ويجب أن تكون القوانين ملائمة للشعب الذي من أجله سُنَّت بحيث إذا لاءمت شعبا آخر غيره كان ارتباك عظيم . . . ويجب أن تكون متمشية مع طبيعة البلد ومناخه . . . ومع طبيعة أرضه وموقعه واتساعه ، ومع نوع المعيشة التي يمتهنها الشعب من زراعة أو صيد أو رعي ، ويجب أن تتفق أيضا مع مقدار الحرية التي يحتملها الدستور ، ومع ديانة السكان وميولهم وثروتهم وتعدادهم وتجارتهم وعاداتهم وأحوالهم العامة . . . في كل هذه النواحي يجب أن تعالج القوانين» .

ونشأ الاجتماع الانساني — في رأي ابن خلدون — عن الأحساس بالضعف من جانب الفرد في الحصول على الغذاء والسلاح ، وعن الظلم والعدوان مما لا يزال عالقا بالنوع الإنساني . أما منتسكيو فيرى أن ما يقرب بين الحيوان وأفراد جنسه إنما هي بوادر الخوف المشترك ، وكذلك الإنسان .

ولقد أراد «دوركيم» زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية

أو البحر الميت) ديار لوط وجبال الشراة إلى آيلة (العقبة) كله مضموم إلى جند فلسطين ، وغير ذلك وأكثرها جبال والسهل فيها قليل[1] .

ولو أن طيراً كانت مثل سيره ... إلى واسط من إيلياء[2] لكلت
سما بالهاري من فلسطين بعد ما ... دنا الشمس من في إليها فوات

قال البستي ، وكان ورد بغداد رسولاً من غزة يذكر فلسطين والتزم ما لا يلزمه من الطاء والياء والنون يمدح عميد الرؤساء أبا طاهر محمد بن أيوب وزير القادر بالله ثم القائم :

العبد خادم مولانا وكاتبه ... ملك الملوك وسلطان السلاطين
قد قال فيك وزير الملك قافية ... تطوى البلاد إلى أقصى فلسطين
كالسحر يخلب من رعيه مسمعه ... لكنه ليس من سحر الشياطين

(١) يلاحظ أن جند فلسطين كان يحدها من الشمال اللجون ومرج بن عامر ، ويدخل فيه وادي العربة وجبال الشراة في شرق الأردن الآن والبلقاء . أما النور والقسم الشمالي من فلسطين الآن بما في ذلك حيفا وعكا وصور فقد كانت تابعة لجند الأردن .

(٢) الاسم الذي أطلقه الرومان على القدس وهو إيليا كابيتولينا .

فأرعه سمعك اليمون طائره ... لازال حليك ملء الكتب والطين
وعشت أطول ما تختار من أمد ... في ظل عز وتوطيد وتوطين

وقال ابن عرمة :

كأن فاها لمن تؤنسه ... بعد هبوب الرقاد والوسن
كأس فلسطية معتقة ... شيبت بماء من مزنة الفنن

قال ابن الكلبي في قوله تعالى (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) هي أرض فلسطين . وفي قوله تعالى . (الأرض التي باركنا فيها للعالمين) قال هي فلسطين .

قال عدي بن الرقاع :

فكأني من ذكركم خالطتني ... من فلسطين جلس خمر عقار
عتقت في الدنان من بيت رأس[1] ... سنوات وما سبتها التجار
نعمي صهباء تترك الرء أعشى ... في بياض العينين منها احمرار

(١) هي إحدى المدن العشرة الافريقية المدعوة بالديكابولس Decapolis

أحمد سالم الخالدي

الكلام بقية

الحديثة أن يصبغ جهوده في الاجتماع بالصبغة العلمية فيبز في هذا العلم ناحيتيه « الاستقرارية Statique والانتقالية Dynamique كما هو معروف في العلوم البحتة كالميكانيكا والكهربائية وغيرها »

فطن ابن خلدون إلى هذا قبل « دوركيم » إذ يرى أن المجتمع ينتقل من البداوة إلى الحضارة ، وهما حالتان طبيعيتان تعرضان له حتى توفرت الظروف . ويحدث هذا التطور تبعا لنوع المعاش وانتقاله ومن البسيط إلى المركب ، من الضروري إلى الكمالي ، ومن البداوة إلى الحضارة : فأهل البدو على الفطرة الأولى ، وهم أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، ونظرا « لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، فامرون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم » فهم لذلك أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر .

ومن مظاهر البداوة : « العصبية » التي تكون بالالتحام بالنسب بين القبائل و« سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية » التي بها « تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم » وتكون الرياسة لمن كان « أعرق في البداوة وأكثر توحشا » والرياسة في نظر ابن خلدون سؤدد ، وإذا انقلب السؤدد إلى الحكم بالقهر والغلبة انتقلت الرياسة إلى الملك وطرأت على المجتمع عوارض الترف والنعيم والانقياد ، ويعرض له التنافس في معالي الأمور كما تصوره الوحشية وبكل ذلك يكون المجتمع في صميم طور الحضارة لأن المعاش كان ضروريا فصار كماليا ، ولأن « الحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع » . والملك يتسع إذا كان أساسه الدين أولا .

هذا هو المجتمع الديناميكي عند ابن خلدون . أما منتسكيو فيستنتج قوانين طبيعية أولى هي أسباب التطور في المجتمع ، منها السلم الناشئ عن شعور الفرد بضعفه إزاء التوحشين فيشعر « بالدونية » ولا يشعر بالمساواة ، ولا يرغب في المهاجمة فيسالم ، ويتلو الشعور بالسلم الشعور بالحاجة ثم الشعور بالفرحة المشتركة .

ومن أهم العوامل الفعالة في المجتمع الإنساني « الدين » لما له من أثر في الأخلاق والتربية ، وكذلك في السياسة والملك . ويفضل ابن خلدون الأحكام الشرعية على الأحكام التعليمية لأن الأولى يكون الوازع فيها هو الضمير لا المخافة والانقياد كما هو الشأن في الأخرى . لهذا يعتبر التعاليم الشرعية هي أصول التربية والأخلاق ، وكل ما عداها مفسد ضار ، « فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس ، لأن الوازع فيها أجنبي ، وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي » .

وللدين الأثر القوي في الدول العسامة الاستيلاء ، العظيمة الملك ، « لأن الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب ، وتأليفها ، إنما يكون بحيرة من الله في إقامة دينه ... وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل ، حصل التنافس ، ونشأ الخلاف ، وإذا انصرفت إلى الحق ، اتحدت وجهتها فذهب التنافس ، وقل الخلاف ، وحسن التعاون ، والتعاضد ، واتسع نطاق الكلمة للملك فعظمت الدولة » . والدعوة الدينية في نظره تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية ، والإمام خليفة عن صاحب الشرع .

أما منتسكيو — مع سعة إحاطته بالدين المقارن — فإنه ينظر إلى الدين من حيث صلاحيته للدولة « فسوف لا أعالج مختلف أديان العالم إلا من حيث علاقتها بالخير الذي تحققه للدولة » . ويقول « إن الأمير الذي يحب الدين ويخشاه إنما هو أسد يذعن لليد التي تدلله ، أو الصوت الذي يناغيه ، والأمير الذي يخشى الدين ويبغضه إنما هو الوحش الضاري الذي يعض السلسلة التي تمنعه من التهجم على المارة ، وأما ذلك الذي لا دين له أصلا فهو ذلك الحيوان المرعب الذي لا يشعر بحريته إلا عند ما يتهجم ويفترس » .

لهذا أخذ منتسكيو يعرض على كل حكومة ما يناسبها من الأديان والمذاهب حسب اعتدال هذه الحكومة أو استبدادها « لأن الدين يتبع عادة لون الحكومة » ولأن الدين خير ضامن للناس إخلاص الناس ، فإذا وجب ألا يتعارض الدين مع القوانين فقد وجب كذلك ألا يتعارض مع الأخلاق .

يفترض ابن خلدون الفوضى قبل الملك وبعده مما يوجب السياسة الدينية التي يقررها الشرع ، أما السياسة العقلية التي يفوضها العقلاء فإنها لا ترقى إلى غاية الأحكام الشرعية . « فالسياسة والملك هي كفالة للخلق ، وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه

بينهم ، وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع ، وأحكام البشر إنما هي من الجهل والشيطان » .

وأنواع الملك ثلاثة : الملك الطبيعي ، والملك السياسي ، والخلافة . فالأول حمل الكافة على الغرض والشهوة ، والثاني حملهم على العقل في جلب النفع الدنيوي ، ودفع الضرر ، والأخير هو حملهم على الشرع دينا وأخرى ، وهي خلافة من صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا .

وإذ تتكون الدولة على هذا النحو ، يستقصي ابن خلدون أطوارها الخمسة فيما يلي : — الظفر والاستبداد والترف والدعة والإسراف : ويرى أيضا أن المال والجند هما العاملان الرئيسيان في إقامة دعائم الملك إذا وجدا ، وتقويضها إذا فقدا .

ويستطرد من البحث في الخلافة التي هي الملك الصحيح أو الدولة المثالية إلى البحث في ماهيتها وشروطها وخططها التي في مقدمتها الصلاة ، ثم تطورها وانتقالها إلى الملك ، ولا ينسى الحروب وأسبابها التي لا تعدو أن تكون من هذه الأربعة : — الغيرة والمنافسة ، عدوان ، غضب لله ولدينه ، غضب للملك . والنوعان الأولان حروب بغي وفتنة ، والآخران حروب جهاد وعدل .

والعادات تتأثر بالسياسة ، فالناس على دين الملك ، وعوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه ، والمغلوب يقلد الغالب ، وتعاقب الأمم والأجيال في الملك يؤدي إلى المخالفة في العادات بالمراد . والفضيلة دعامة قوية لقيام الدولة ، والعدل أساس الملك ، والظلم فساد للدولة وإفساد للرعية .

وعند منتسكيو أن القوانين علاقات rapports ضرورية تنجم عن طبائع الأشياء ، والوضعية منها أو السياسية التي تواضع عليها العقل الآنساني ماهي إلا حالات يتجلى فيها العقل ، وهذه القوانين دولية وتشريعية ومدنية : الأولى تتعلق بما بين الدول من علاقات ، فهي القانون الدولي العام ، والثانية تتعلق بما بين السلطات التي تنظم الدولة من جهة ، وبما بينها وبين الدولة من جهة أخرى ، والأخيرة تتعلق بتنظيم العلاقات بين الأفراد . ثم يتحدث عن العلاقة بين القوانين الوضعية وبين شكل الحكومة ، والأسس التي يقوم عليها الحكم والبيئة الجغرافية والاقتصاد وكل هاتيك العناصر التي تسمى « الروح العامة » .

والحكومات عنده أربع : الجمهورية وهي إما ديمقراطية أو ارستقراطية ، والملكية ، والمستبدة ، ولكل حكومة فضيلة تخصها ، فالديمقراطية فضيلتها حب الوطن أو حب المساواة ، والأرستقراطية فضيلتها الاعتدال ، والملكية فضيلتها الشرف ، والاستبدادية صفتها السياسية الخوف ، فهي إذن فضائل سياسية لا تمت بصلة إلى الدين أو الأخلاق .

ويقول ابن خلدون « إن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس ، وتعديد ذنوبهم ، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالخديعة والمكر والكذب ، فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم ، وربما خدلوه في مواطن الحرب — »

وللاصلاح الاجتماعي حدود في منتسكيو إذ يقول « إذا أراد أمير أن يغير من أحوال شعبه فعليه أن يصلح بالقوانين ماهو مؤسس بالقوانين ، وأن يغير بالعادات ماهو مؤسس بالعادات ، وإنها لسياسة عمياء أن يغير بالقوانين ما يجب تغييره بالعادات » .

أما ابن خلدون فإنه ينشد الأصلاح الاجتماعي الذي غايته الاقتداء « إذ هو — أي التاريخ — يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » .

فالظواهر الاجتماعية والعوامل الطبيعية ذات علائق بالقوانين المشتقة من الروح العامة التي تنتج من تفاعل هذه العوامل ، وتلك الظواهر في كل مجتمع على حدة .

ومن هذا العرض الموجز يرى القارىء مدى الائتلاف والاختلاف بين ابن خلدون رائد التاريخ ، وبين منتسكيو رائد السياسة وكيف التقيا في ميدان الاجتماع .

محمود محمود زيتون